تأثير النسيج النحوي والصرفي في دلالة الظّلم في القرآن الكريم

The Influence of Grammatical and Morphological Texture on the Significance of Injustice in the Holy Quran

Ismail Bakri Qala'ji
Lecturer/ The University of Aleppo/ Syria
greatismile1@gmail.com

إسماعيل بكري قلعه جي
محاضر/ جامعة حلب/ سوريا

Received: 4/ 5/ 2020, **Accepted:** 3/ 8/ 2020.
DOI: 10.33977/0507-000-055-005
https: //journals.qou.edu/index.php/jrresstudy

تاريخ الاستلام: 4/ 5/ 2020م، تاريخ القبول: 3/ 8/ 2020م.
E-ISSN: 2616-9843
P-ISSN: 2616-9835

الملخص:

يهدف البحث إلى استجلاء أثر النحو والصرف في التعبير القرآني لموضوع الظلم الوارد في (267) آيةً، تكررت فيها كلمات الظلم (289) مرةً، وتعددت طرائق التعبير عنه بأسلوب يستدعي البحث عن أسراره.

وانقسم البحث قسمين: الأول يدرس طرق التعبير عن ظلم الإنسان لنفسه ونفي ظلم خالقه له ولغيره، والثاني يدرس طرق التعبير عن أشكال الظلم وعواقبه والتخويف منه.

ومن نتائجه أن القرآن لا يستخدم اسم التفضيل في تصوير الظلم إلا عندما يمس شعائر الله وما يلحقها من الكبائر كافتراء الكذب على الله، ومنع الصلاة في المساجد؛ للدلالة على شدة شناعتها.

الكلمات المفتاحية: القرآن، المعنى، النحو، الصرف، الظّلم.

Abstract:

The research aims at clarifying the effect of the grammatical and morphological systems in the Qur'anic expression on the subject of injustice which was mentioned in 267 verses. The words indicating injustice were repeated 289 times in the aforementioned verses, and the methods of its expression were varied in a manner that calls for research on its secrets.

The research was divided into two parts. The first studies the ways of expressing the injustice of man to himself and denying the injustice of his creator to him and others. The second part studies the methods of expressing injustices, the consequences of injustice and intimidation of it.

One of the results was that the Qur'anic expression does not use the name of preference in depicting injustice except when injustice handles the rituals of God and the major sins that follow, such as slandering lies to God and prohibiting prayer in mosques, to indicate the severity of its ugliness.

***Keywords**: Qur'an, Meaning, Syntax, Morphology, Injustice.*

المقدمة:

لما كانت اللغةُ وعاءً للفكرة، كانا بالضرورة متناسبين في كلام المبدع الذي يفصّل للفكرة ثوبها اللغوي الملائم بلا قصَر أو شطط، وتُعدُّ الخيوط النحوية والصرفية من أهم العناصر التي تدخل في نسيج هذا الثوب، لأن النحو والصرف هما الموجّهان الأساسيان لدفّة المعنى بما يقدّمانه له من خيارات الصيغ والتراكيب التي تحمله وتعبر به الجسر بين المبدع والمتلقي.

واستثمر القرآن معطيات النحو والصرف على النحو الأمثل في تناوُله الفكرة من زواياها المختلفة بأساليب مختلفة؛ لتأكيد الموضوع وتقليبه على أوجهه، وإيصال الفكرة كلَّ مرة بصيغة جديدة تثير فينا أشياء لم نرَها سابقًا، ومن هذه الموضوعات موضوع الظُّلم الذي سار فيه القرآن على النهج المذكور، فحدّد أسبابه وأنواعه وعواقبه بطرق نحوية وصرفية متنوعة.

مشكلة البحث:

تتلخص المشكلة في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- كيف يستثمر القرآن المعاني النحوية والصرفية في إيضاح أفكاره الجزئية؟
- ما الغرض من تعبير القرآن عن الفكرة الواحدة بغير صورة لغوية؟
- ما أبعاد العلاقة بين الشكل (النحو والصرف) والمضمون في التعبير القرآني؟

أهداف البحث:

- بيان خصوصية توظيف القرآن للمعاني النحوية والصرفية.
- إبراز الفروق الدلالية بين الاستخدامات النحوية والصرفية المتشابهة.
- تبيين أثر النحو والصرف على الدلالة في القرآن.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من تسليطه الضوء على الأساليب النحوية والصرفية في التعبير القرآني عن موضوع الظلم، لمعرفة الصورة الكلية للأسلوب المتّبع في هذا الموضوع.

الدراسات السابقة:

لم تتناول دراسات الإعجاز اللغوي موضوع الظلم من حيث الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية المكوّنة له بشكل مستقل، فوقفت عند شذرات متفرقة في الكتب كدلائل الجرجاني وكشّاف الزمخشري وبحر أبي حيّان قديمًا، والبيان في روائع القرآن لتمام حسان ومعاني النحو للسامرائي حديثًا، ليتميز هذا البحث بوضع صورة متكاملة للاستخدام النحوي والصرفي لموضوع الظلم واستخراج لطائفه.

وهذا لا يعني انعدام الدراسات المتخصصة في موضوع الظلم، ككتاب (الظلم ظلمات يوم القيامة) لابتهاج حجازي بدوي سالم غبور، و (الظلم في ضوء القرآن الكريم: حقيقته، أنواعه، أسبابه، آثاره، الوقاية منه) : رسالة دكتوراه للباحثة الجزائرية نورة بن حسن. و (الظلم ومشتقاته في القرآن الكريم دراسة تحليلية صرفية دلالية عن لفظ الظلم ومشتقاته وقيمه التربوية) لمحمد فهمي رمضان، وهو يحصي ألفاظ الظلم ويحللها ويبين دلالاتها وقيمها، لكنه لا يُعنى بالجانب النحوي ولا بالمقارنة بين التراكيب المتشابهة خلافًا لبحثنا.

منهج البحث:

يعتمد البحث على إحصاء آيات الظلم والمقارنة بين مواطن

التشابه مستعينًا بالمنهج الوصفي التحليلي لوصف الظاهرة النحوية والصرفية، وتبيين مقاصدها.

حدود البحث:

ينحصر البحث بدراسة الاستخدام النحوي والصرفي في الآيات التي اتخذت قوالب نحوية وصرفية متشابهة في التعبير عن الظلم، وتخرج من نطاقه الآياتُ المتباينة في تركيبها النحوي وصيغها الصرفية.

المبحث الأول: تشخيص مشكلة الظلم:

المطلب الأول: ظلم الإنسان لنفسه ونفي ظلم الله له:

عبرّ القرآن عن ظلم الإنسان لنفسه بثلاث صور: الأولى مقرونة بانتفاء ظلم الله للإنسان، والثانية مقرونة بانتفاء ظلم الإنسان لله. وجاءتا في تركيب يتضمن الفصل بين الفكرتين بـ (لكن) الاستدراكية، مع العدول عن رتبة المفعول به في الفكرة الثانية، والصورة الثالثة مجردة من ذينك القيدين.

أ. ظلم الإنسان لنفسه مقرونًا بانتفاء ظلم الله له:

تكرر في ثمانية مواضع، ثلاثة منها جاءت في تركيب شبه موحّد، وهي:

- ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 117).
- ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: 33).
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: 118).

تكررت الفكرة ثلاث مرات بتراكيب متقاربة لهدف تعليمي يقوم على تكرار الفكرة لتثبيتها، مع إضافة دلالة جزئية كل مرة لإيصال المعلومات بالتدريج؛ فالآية الأولى جاءت مجردة من فعل الكون لتسليط الضوء على المفعول به (أَنفُسَهُمْ) دون تقييده بزمن غير زمن الاستمرار الذي دل عليه المضارع، وجاءت الثانية مع الفعل (كَانُوا) للدلالة على استمرار الظلم عادةً قديمة متجددة، والتفتت الثالثة من التكلم إلى الغيبة؛ للفت الانتباه إلى مصدر الظلم.

وبعدَ تقرير انتفاء ظلم الله للإنسان، أصبح بدهياً أن الناس هم من يظلمون أنفسهم، ومع ذلك ثُبِّتت هذه الفكرة في تتمة الآية بعد (لكن) بشكل يتناسب مع ما قبلها، وبُنيت على هذه الفكرة فكرة جزئية مفادها دفع ظنّ الإنسان أن ظلمه سينعكس على غيره، وعُبِّر عن الحصر بتقديم المعمول (أَنفُسَهُمْ) على عامله (يَظْلِمُونَ)، «وإنّما لم يقل: «ولكن كانوا يظلمون أنفسَهم»؛ لأنّ ذكر المظلوم كان أهمّ» (الجرجاني، 2009، 1/ 159) من ذكر الفاعل المُشار إليه بما وراء السطور.

والموضع الرابع جاء مختلفًا تركيبُه عن الثلاثة السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: 44)، فالجديد في هذه الآية دخول (إنّ) المؤكدة، ومجيء الفعل في بداية الآية مضارعًا وانفصال مفعوله عنه؛ لملاءمة تتمة الآية لفظًا ومعنًى، وإعمال (لكنّ) في الاسم الظاهر (النّاسَ) لإتمام المشابهة اللفظية، ودخول المفعول المطلق (شيئًا) النائب عن المصدر لبيان النوع والتوكيد والتعجب (المحلي والسيوطي، 2008، ص763)؛ فأما بيان النوع فيُراد به نوع الظلم بأنه أقلّ القليل؛ بدلالة تنكير (شَيْئًا)، وأما التوكيد فهو توكيد العدل؛ لأن نفي الظلم مدعومًا بهذا المفعول المطلق يحمل توكيد نقيضه، وأما التعجب فهو من تناهي الدقّة في العدل.

وجاءت ثلاثة مواضع أخرى في تركيب موحّد هو: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: 70 والروم: 9 والعنكبوت: 40).

والجديد في هذه التراكيب تحقيق مزيد من التشابه اللفظي بين ما قبل (لكن) وما بعدها؛ بمجيء فعل الكون المنفي في البداية نظيرًا لفعل الكون المثبَت في التتمة، مع دخول لام الجحود على الخبر؛ لتتحصل دلالة نحوية جديدة لم نلحظها في الآيات الأربع الأولى، وهي دلالة انتفاء إرادة الفعل، فلا نفيَ أبلغُ من ذلك، مع الأخذ بالاعتبار ما يتضمنه التركيب من ثنائية النفي والإثبات، فمجرد نفي الشيء يدل على إثبات عكسه، لكن لم يُكتفَ بما في النفي من إثبات لعكسه، فكان التقرير باللفظ الدال على الإثبات؛ لإزالة رواسب الشك والعناد.

وإذا كان التعبير قد ترك هذه الدلالة للأدوات النحوية في هذا التركيب، فقد انتقل من التلميح إلى التصريح في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: 31)، «وَفيه مُبَالَغَةٌ في نَفْي الظُّلْم، حَيْثُ عَلَّقَهُ بِالْإِرَادَة. فَإِذَا نَفَاهُ عَن الْإِرَادَة، كَانَ نَفْيُهُ عَن الْوُقُوع أَوْلَى وَأَحْرَى» (الأندلسي، 1420هـ، 9/ 255)، وهنا لا بد من ذكر الصورة النقيضة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (النساء: 168) إذ انتفت، بوساطة فعل الكون المنفي، إرادة الله مغفرةَ ما اقترفه الظالمون، مثلما انتفت إرادته للظلم، فما أبلغ المقابلة بين الطرفين!

أما الموضع الأخير، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ (هود: 101)، فتميّز عن القالب العام بميزتين: المحافظة على رتبة المفعول به بعد الفعل، ومجيء الفعل في الكفة الثانية ماضيًا لا مضارعًا مسبوقًا بفعل الكون؛ لأنه يسجل واقعة انتهت دون قصد استمرارها، فالآيات التي تتحدث عن ظلم الإنسان لنفسه في الزمن الماضي البسيط كلها حافظت على رتبة المفعول به[1]، في حين قُدِّم المفعول على الفعل في الماضي المستمر في بقية الآيات للدلالة على أن الظلم عادة مستمرة للبشرية كقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾[2] (الأعراف: 177).

وقد يكون التعبير بالماضي كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف: 76)، فيأتي الخبر مسبوقًا بضمير الفصل لتوكيد حصر الفعل بالإنسان دون الحاجة إلى ذكر المفعول؛ لأن الغاية هنا تحديد الفاعل.

أما المضارع الدال على الحاضر البسيط أو المستقبل فيُحافَظ معه على رتبة المفعول أو يُحذف: فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: 110)؛ لأنه حكمٌ عام غير مقرون بانتفاء ظلم الله للإنسان، فلا قصد فيه على حصر المفعول، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: 40) حيث حُذف المفعول لإرادة الإطلاق.

ب. ظلم الإنسان لنفسه مقرونًا بانتفاء ظلمه لله:

من البدَهي أن يكون ظلم الإنسان لله منتفيًا، ولا حاجة لنفيه أمام الإنسان العاقل، ولكن القرآن آثَرَ أن يذكر هذه البدهية في موضوع الظلم على سبيلين: أحدهما المشابهة اللفظية، وثانيهما تفهيم الكافر الذي يظنّ أنه يضرّ الله بكفره، أنه لن يضرّه أبدًا، بل سيضر نفسه، وأنه لو آمن فلن ينفع إلا نفسَه.

وتكررت هذه الصورة في القالب ذاته في موضعين هما:

- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: 57).

- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: 160).

فبعد أن ذكّر الله بني إسرائيل بنعمه، أشار إلى أنهم إذ جحدوها لم يظلموا خالقهم، فحذف متعلّقات الإسناد للفعل (ظَلَمُونَا) التي تسهم في توضيح سبب الظلم، وفسّره الزمخشري بقوله: «وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم» (الزمخشري، 1407هـ، 2/ 169)، وذكر ابن عاشور (1984، 9/ 144) أن الموضع الأول جاء بصيغة الخطاب ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، بينما جاء الثاني بصيغة الغيبة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾؛ لأن الأول قُصد به التوبيخ، والثاني الاعتبار.

ومن جماليات هذا القالب استخدام (لكن) بين الصورتين المتناقضتين؛ قال أبو حيان: « (لَكِنْ) هُنَا وَقَعَتْ أَحْسَنَ مَوْقِعٍ، لأَنَّهُ تَقَدَّمَ قَبْلَهَا نَفْيٌ وَجَاءَ بَعْدَهَا إِيجَابٌ...، لأَنَّ الاسْتِدْرَاكَ الْحَاصِلَ بِهَا إنما يكون يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا بِوَجْهٍ مَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا تَقَرَّرَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ مِنْهُمْ ظُلْمٌ، فَلَمَّا نُفِيَ ذَلِكَ الظُّلْمُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الله تَعَالَى بَقِيَتِ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً وَمُتَطَلِّعَةً إِلَى ذِكْرِ مَنْ وَقَعَ بِهِ الظُّلْمُ، فَاسْتُدْرِكَ بِأَنَّ ذَلِكَ الظُّلْمَ الْحَاصِلَ مِنْهُمْ إِنَّمَا كَانَ وَاقِعًا بِهِمْ» (الأندلسي، 1420هـ، 1/ 348)؛ أي إن المتلقي كان يتطلّع إلى معرفة المظلوم بعد أن ثبت وقوع الظلم منهم وانتفى وصوله إلى الله، فجاءت (لكن) الاستدراكية ملبيةً هذا التطلع، فوقعت في النفس المتهيئة لها أحسن موقع.

ت. ظلم الإنسان لنفسه مجردًا:

وردت هذه الفكرة موزعةً على مجموعتين: الأولى جاءت آياتها إقرارًا من الإنسان بظلمه لنفسه، والثانية جاءت شهادةً من الله على الناس بظلم أنفسهم.

- المجموعة الأولى: إقرار الإنسان بظلمه لنفسه:

تشمل هذه المجموعة أربع آيات يتألف النموذج النحوي لاثنتين منها من النداء متبوعًا بجملة خبرية من النوع الطلبي مؤلفة من جملة اسمية ذات وجهين، كقوله تعالى على لسان بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: 44)، وقوله تعالى على لسان موسى بعد أن وكَزَ رجُلًا، فقضى عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (القصص: 16).

وطرأ تعديل على هذا النموذج في قوله تعالى على لسان آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: 23)؛ بالانتقال من الخبر الطلبي إلى الابتدائي، ومن الجملة الاسمية الكبرى إلى الفعلية البسيطة؛ لأن الظلم هنا لا يرقى إلى درجة الشرك أو القتل.

أما قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم بعد تحطيمه أصنامهم: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنبياء: 64) فخرج عن النموذج العام بالانتقال من التكلم إلى الخطاب، ومن الخبر الطلبي إلى الإنكاري بوساطة (إنّ) وضمير الفصل، فضلًا عن انتقال الجملة من اسمية ذات وجهين إلى بسيطة.

فما الفروق المعنوية التي استدعت التغيير النحوي بين الآية الثالثة وما سبقها، وبين الآية الرابعة وما سبقها؟

سُبقت الآيات الثلاث الأولى بالاستغفار، فلا عناد في المعصية، فاكتُفي بالخبر الطلبي في الآيتين الأولَيَيْن، وبالخبر الابتدائي في الثالثة، وهذان الضربان من الخبر –إذا تأمّلنا معطيات المقام– متساويان هنا؛ لأنّه لم يُقصد بالخبر الطلبي إزالة الشك عند المخاطَب، بل المتكلم؛ فالمخاطَب هنا هو الله، ومن البَدهي أنه لا شك في علمه، فكان المتكلم موطنَ الشك الوحيد في تصرّفاته، فلمّا تبيّن له خطؤه، أكّد لنفسه ظُلمها.

وإذا قارنّا بين نوع المعصية في الآيتين الأولَيَيْن وفي الثالثة، وجدناها في الأولَيَيْن إحدى الكبائر، وهي عبادة الشمس، وقتل النفس، أما في الثالثة، فهي الأكل من الشجرة، وهي معصية وقع فيها آدم بسبب الفضول لا العناد، فكانت درسًا لتعليم البشرية الامتثال لأوامر الله بغض النظر عن ماهيّتها، علمًا أنّه سبق تحذيرهما في موطنين سابقين بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: 19 والبقرة: 35)، فكان الزلل متوقّعًا أمام كثرة التحذيرات، لأنك لا تكثر التحذير على هذه الصورة إلا إذا كان الوقوع في المحظور وشيكًا، وهذا يُفسِّر عدول الآية الثالثة في التعبير عن الظلم إلى الجملة الفعلية البسيطة عن الفعلية الصغرى المدعّمة بالاسمية الكبرى.

أما الآية الرابعة فكان تعبيرها عن انقسام الكافرين واضحًا، فخاطبوا بعضهم بالخبر الإنكاري الذي جاء على أصل الوضع ليُجابَه به إنكار عَبَدة الأصنام لخطئهم، وكان دخول ضمير الفصل بين ركني الإسناد في الآية الرابعة ضروريًّا؛ للفصل بين الكفّتين وحصر الظلم في المخاطَبين، فهم الوحيدون الذين يستحقون التقريع لا نبيُّهم، وهذا يُفسِّر عدول هذه الآية إلى الجملة الاسمية عن الفعلية؛ لأنها ليست بحاجة إلى تحديد المفعول به، بل الفاعل.

- المجموعة الثانية: شهادة الله على الناس بظلم أنفسهم:

عُبّر عن هذه الفكرة بتركيبين بارزين: الأول إضافة اسم الفاعل إلى معموله، والثاني إعماله فيه مع إدخال لام التقوية على المعمول، فمن الأول:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ (النساء: 97).

- ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ (النحل: 28).

ومن الثاني:

- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (الكهف: 35) .
- ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (فاطر: 32) .
- ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات: 113) .

وضّح النحاة الفرق بين الإضافة اللفظية والإعمال، فقالوا: «تقول: هذا ضاربٌ زيدًا، إذا أردت «بضارب» ما أنت فيه أو المستقبل كمعنى الفعل المضارع له. فإذا قلت: هذا ضاربُ زيد، تريد به معنى المضي» (ابن السراج، د. ت، 1/ 125) ، فالآيتان الأُولَيان تتحدثان عن ظلم الإنسان الذي وقع منه في أثناء حياته ومضى، وهو الآن في وقت النزع، فاستُخدمت فيهما الإضافة غير المحضة. أما الآيات الأخريات فتتحدث عن وصف حاضر، فاستُخدم فيها الإعمال.

المطلب الثاني: نفي ظلم الله للإنسان ولغيره من المخلوقات:

قُسمت هذه الفكرة إلى فكرتين جزئيتين: الأولى نفي ظلم الله للإنسان خاصة، والثانية نفي ظلم الله لمخلوقاته عامةً.

أ. نفي ظلم الله للإنسان خاصة:

تكررت هذه الفكرة في (22) آيةً موزعة على ثلاث مجموعات؛ الأولى تضمّ (13) آية استخدمت الجملة الاسمية ذات الوجهين، والثانية تضمّ (7) آيات استخدمت الجملة الفعلية المدعومة بالمفعول المطلق، والثالثة تضمّ آيتين: إحداهما استخدمت جملتين فعليتين متقابلتين، والثانية استخدمت (لا) النافية للجنس.

- المجموعة الأولى:

- ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 272)
- ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 281)
- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 25)
- ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 161)
- ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: 160)
- ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: 60)
- ﴿فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: 47)
- ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: 54)
- ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (النحل: 111)
- ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (المؤمنون: 62)
- ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: 69)
- ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية: 22)
- ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الأحقاف: 19)

أدى التعاضد بين المكوّنين الاسمي والفعلي إلى تمازج دلالتيهما بما يخدم انتفاء الظلم على أحسن وجه، فأضحى انتفاؤه أمرًا ثابتًا مستقرًّا (بدلالة الجملة الاسمية) ومستمرًّا (بدلالة الفعل المضارع) في آن.

- المجموعة الثانية:

- ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: 49) .
- ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: 77) .
- ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: 124) .
- ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (الإسراء: 71) .
- ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: 60) .
- ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء: 47) .
- ﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (يس: 54) .

حافظت الجملة الفعلية في هذه المجموعة على توكيد انتفاء الظلم بالمفاعيل المطلقة (فَتِيلًا، نَقِيرًا، شَيْئًا) النائبة عن المصدر مؤدّية معنى التوكيد؛ فالفتيل: خيط رقيق في شقّ النَّواة، وقد ضَرَبَت العربُ المثلَ في القلة التافهة بالفتيل والنقير، وهو النُّقْرة التي في ظَهر النَّواة (السمين الحلبي، د. ت، 3/ 702) .

ولا بد من الأخذ بالاعتبار بناءَ الأفعال للمجهول في هاتين المجموعتين للدلالة على أن الظلم معدوم المصدر؛ فمجيء الفعل المبني للمجهول في سياق النفي يعني عموم انعدام الفعل والفاعل على الإطلاق (السيد موسى، د. ت، ص22 – 23 – 37) ، خلافًا لما كان عليه الأمر في الحياة الدنيا، إذ إن آيات المجموعتين تتحدث عن تأدية الحقوق يوم القيامة، ولذلك سنلاحظ حضور البناء للمعلوم عندما يتعلق الأمر بالدنيا كما في الآية الأولى من المجموعة الثالثة:

- المجموعة الثالثة:

- ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 279)
- ﴿لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: 17)

لا جامعَ نحويًّا أو صرفيًّا بين هاتين الآيتين، فأفردنا لهما مجموعة خاصة لتفرُّدهما عن سائر الآيات السابقة. فالتوازن التركيبي في الآية الأولى بين البناء للمعلوم والبناء للمجهول الذي يصحبه التقابل في واو الجماعة بين الفاعل والمفعول به الذي ناب عن الفاعل يسهم في التعبير عن التوازن والعدل بأتمّ صورة، وجاءت الآية خلوًا من أشكال التوكيد والتثبيت على خلاف ما عهدناه في موضوع الظلم؛ لأنها حكم خاص بمسألة الرِّبا من جهة، ولأنها تُعالَج في الدنيا من جهة أخرى، فلا شيء غيبيًّا أو مستقبليًّا يقتضي التوكيد.

أما الآية الثانية فتعبّر عن نهاية الظلم، فظُلم الدنيا انطوت صفحته مع التنصيص على نفيه المؤكَّد بما تحمله (لا) من معنًى

معاكس لـ (إنَّ) ، فهذه تدل على توكيد الإيجاب، وتلك تدل على توكيد النفي.

ب. نفي ظلم الله لمخلوقاته عامة:

خُصَّت هذه الفكرة بتركيب نحوي وصيغة صرفية لم تُستخدَم في المواضع التي تناولت نفي ظلم الله للإنسان خاصة، وذلك كالآتي:

- ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: 182 والأنفال: 51 والحج: 10) .
- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: 46) .
- ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق: 29) .

فاللافت للانتباه تزاحم المؤكِّدات فيها لتكون جميعًا من الضرب الإنكاري المجابه لعناد الكافر، فاستُخدمت أربعة مؤكِّدات في التركيب الأول، وهي (أَنَّ) المصدرية، والباء الزائدة في الخبر، وصيغة المبالغة، واللام الزائدة للتقوية في المفعول، بينما استُخدمت ثلاثة مؤكِّدات في الآيتين الأُخْرَيين فقط.

فهل يكون النفي أبلغ باستخدام اسم الفاعل (ظالم) أو المبالغة (ظلّام) ؟ أفلا يعني نفي المبالغة احتمالَ القليل؟

انتقلت المبالغة هنا من الدلالة على توكيد القيام بالفعل إلى توكيد انتفائه، فعددناها مع جملة المؤكدات، «وَذَهَبَ أبو حيان إِلَى أَنَّ (فعّالًا) قَدْ يَجِيءُ لَا يُرَادُ بِهِ الْكَثْرَةُ، كَقَوْلِ طَرَفَةَ (الزوزني، 2004، ص88) :

وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مَخَافَةً
لَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ

لَا يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ يَحِلُّ التِّلَاعَ قَلِيلًا، لِأَنَّ عَجُزَ الْبَيْتِ يَدْفَعُهُ، فَدَلَّ عَلَى نَفْيِ الْبُخْلِ فِي كُلِّ حَالٍ» (الأندلسي، 1420هـ، 3/ 456 – 457) .

أما من يرفض خروج الصيغة عن أصلها ويرى أن صفات الذم إذا نُفيت مبالغتها لم ينتفِ أصلها، فيرى أن (فعّالًا) ليس هنا للمبالغة، بل للنسب؛ أي وما ربك بصاحب ظلم (الأنصاري، 1985، 1/ 150) .

وبقي شيء آخر لا بد من ذكره حول المبالغة (ظلّام) بأنها لم تُستخدَم بهذا الوزن في غير هذه المواضع، فلما أراد الله تصوير مبالغة الإنسان في الظلم خصّه بوزن (فعُول) في آيتين:

- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: 34)
- ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72)

فهل ثمة تفاوت بين (فعّال) و (فَعُول) ؟ نقل السيوطي عن ابْن طَلْحَة بأن (فَعُولًا) لمن كثر مِنْهُ الْفِعْل، و (فعّالًا) لمن صَار لَهُ كالصناعة، ثم نقل عن أبي حيَّان أنه لم يتعَرَّض لذَلِك أحد من المتقدمين (السيوطي، د. ت، 3/ 75) ، ومع أن كلام ابن طلحة لم يحظ بالإجماع إلا أنه يومئ بما يهدينا إلى الفرق بين الصيغتين، فإذا كانت (فعول) خاصة بمن كثر الفعل منه، فهذا يعني أنها تُطلق على من كان الفعل مثبتًا متأصلًا فيه، وإذا كانت (فعّال) لمن صار الفعل له كالصناعة فإنه قد يُنسَب إلى هذه الصناعة أو لا، وهذا ما يفسّر استخدامها في نفي ظلم الله لعبيده، واستخدام (فعول) لإثبات الظلم الواقع من الناس، ودليلنا إسناد صيغة (فعول) إلى الله في سياق الإيجاب كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: 207) ، دون أن ترد في سياق النفي ولو مرة، وبذلك نستنتج أن (فعول) آكَدُ من (فعّال) ، وهذا يفسّر قلة عدد المؤكِّدات مع (ظَلُوم) مقارنةً بمثيلاتها مع (ظلّام) ، ولذلك استُخدمت (فعول) للدلالة على الأفعال المتأصلة في الإنسان وكأنه مفطور عليها، قال ابن عاشور في تعليقه على هذه الصيغة: «يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ ظَلُومًا جَهُولًا فِي فِطْرَتِه، أَيْ فِي طَبْعِ الظُّلْمِ، وَالْجَهْلِ» (ابن عاشور، 1984، 22/ 130) ، ويؤكِّد ذلك مجيئُها في قوله تعالى واصفًا الفطرة التي خلق الإنسان عليها: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا × إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا × وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: 19 – 21) .

وآخر ما يستوقفنا فيها المفعول به (العَبِيد) بوزن (فعيل) دون (فعال) ، فقد فسّره بعضهم بأنه أريد به التحقير، وفسره آخرون بأنه أُرِيدَ به موافقة الفاصلة القرآنية (الأندلسي، 1420هـ، 3/ 230 – 232) ، والأرجح أنّ (العبيد) تشمل مَن عبدَ الله أو عبد غيره، بينما تختص (العِباد) بمن عبد الله، فجاءت (العبيد) للدلالة على انتفاء ظلم الله لجميع مخلوقاته من إنس وجنّ سواءٌ من عبده أو عبد غيره، وثمة «تَفْرِقَة مَا بَيْنَ عباد الله وَالْمَمَالِيك، فَقَالُوا هَذَا عَبْدٌ مِنْ عباد الله، وهؤُلَاءِ عَبِيدٌ مَمَالِيكُ... وَلَا يُقَالُ عَبَدَ يَعْبُدُ عبادة إلا لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ...، وأَما عَبْدٌ خَدَمَ مَوْلَاهُ فَلَا يُقَالُ عَبَدَه... وَيُقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ هُمْ عَبَدَةُ الطَّاغُوت، وَيُقَالُ لِلْمُسْلِمِينَ عِبادُ الله» (ابن منظور، د. ت، مادة عبد) ، ويؤيّد هذا الرأيَ قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 108) ، فنفى الظلم عن (العَالَمِينَ) ؛ مفردها (عالَم) ، فهي تشمل عالم البشر وغيره من العوالم، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: 49) ، حيثَ جاء المفعول به (أَحَدًا) للدلالة على عموم المخلوقات، والتقدير: «ولا يَظلِمُ ربّكَ أحدًا من خلقه» (الأمين، 2001، 16/ 388) حتَّى البهائم.

ويرى آخرون أن الجمع (عباد) يُطلق على من عبد الله مخلصًا له الطاعة، بينما يُطلق الجمع (عبيد) على العُصاة (بطة، 2018، ص59) .

وهنا لا بد من العودة إلى استعمال الجمع على صيغة (العِباد) في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: 31) ، فيمكن تفسيره بموافقة الفاصلة؛ لأنه جاء في كنف فواصل متشابهة سابقة عليه ولاحقة له [3] .

ويمكن تفسيره بأنه لا يتحدث عن نفي إرادة ظلم الله لعباده فقط، بل يريد لهذه الإرادة انتفاءَها عن أي ظُلم، حتى ظلم العباد لبعضهم أو لغيرهم؛ بدليل تنكير (ظُلمًا) ، وهذا يُفهم من كلام الزمخشري: «ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: 7) ؛ أي لا يريد لهم أن يَظلِموا» (الزمخشري، 1407هـ، 4/ 165) .

المبحث الثاني: معالجة مشكلة الظلم:

المطلب الأول: تصوير أشكال الظلم:

أ. الظلم في المجتمع:

كحقوق الأيتام [4] والقتل [5] والسرقة [6] وأكل أموال الناس[7] وظلم الناس بشكل عام [8] ، ولم يكن لها قالب نحوي محدد إلا في

قضية حقوق الزوجة:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: 231).

- ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: 1).

فالملاحَظ أنّهما جاءتا بأسلوب الشرط الذي أُكِّد جوابه بـ (قد)، ووقع فيه الظلم على النفس، ولعل القرآن قد خصّ هاتين الآيتين بذكر المفعول به على هذه الصورة خلافًا لما اعتدناه من ارتباط ظلم النفس بالأمور العَقَدية؛ ليبين متانة العلاقة بين الزوجين، فظلمها يعني ظلم نفسه لأنها منه في أصل الخلق، وهي ضعيفة، وظلمُ الضعيف أفحشُ.

ب. الظلم الذي يطال شعائر الله الكُبرى وما يلحقها من الكبائر:

جاءت هذه الفكرة في مجموعتين: الأولى مختومة بالجملة الاسمية المؤكّدة بضمير الفصل، والثانية مصدرة باسم التفضيل المحتضَن في أسلوب الاستفهام الذي خرج إلى معنى النفي.

- المجموعة الأولى: وتتضمن ثماني آيات:

- ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: 229)

- ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: 254)

- ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (آل عمران: 94)

- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: 45)

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة: 23)

- ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ × وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ × أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (النور: 48 – 50)

- ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: 9)

يُلاحظ أن هذه الآيات تصوّر أشكالًا متشابهة للظلم، وسنجد بعضها مكررًا في المجموعة الثانية، كتجاوز حدود الله والكفر وافتراء الكذب على الله وعدم الاحتكام لشريعة الله واتخاذ الكافرين أولياء والنفاق، ويُلاحظ أنها بعد تصوير ممارسات الظالمين تشير إليهم باسم الإشارة للدلالة على تمييزهم عما سواهم وتعيينهم والتنبيه على أن المشار إليه المسبوق بتلك الأوصاف جديرٌ كل الجدارة – من أجل هذه الأوصاف– بالمسند الذي سيأتي بعد اسم الإشارة (العاكوب، 2008، ص112 – 113) ، وهو اسم الفاعل (الظالمون) المسبوق بضمير الفصل الذي يسهم في كمال التمييز والتوكيد والحصر (أحمد، 1436هـ، ص59) ، بالإضافة إلى المبالغة؛ للدلالة على أن المشار إليهم يبالغون في الظلم؛ فهُم ليسوا الوحيدين المسند إليهم هذا الخبر في القرآن.

والآية الأخيرة: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: 11) ، هي الوحيدة التي استُخدم فيها هذا الأسلوب، وهي ليست مختصة بشعائر الله وما يلحقها من الكبائر، ولكن المُلاحظ أن التحذير هنا ينصب على الإصرار وعدم التوبة، ولذلك يُفهم أن الإصرار على المعصية يرتقي إلى درجة الكبائر.

- المجموعة الثانية: وتتضمن (15) آية:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ (البقرة: 114).

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ﴾ (البقرة: 140) .

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: 21).

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ (الأنعام: 93) .

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 144)

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ (الأنعام: 157)

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ (الأعراف: 37 ويونس: 17)

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: 18).

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ (الكهف: 15)

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ (الكهف: 57) .

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ﴾ (العنكبوت: 68) .

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ (السجدة: 22) .

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ﴾(الزمر: 32)

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الصف: 7) .

فهي تصوّر جرائم كُبرى تمسّ مساجد الله وأنبياءه وآياته،

ولعظم هذه الجرائم خصّها القرآن باسم التفضيل، ويبدو أن أكبر جرم بينها هو افتراء الكذب على الله؛ لأن معظم الآيات التي تناولت هذا النوع من الظلم كُرِّرت فيها صيغة أخرى مشتقة من الظلم، بالإضافة إلى اسم التفضيل، وهي صيغة اسم الفاعل التي أسهمت في تعميق الفكرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى × وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى × وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ (النجم: 50 – 52) ، هو الوحيد الذي استخدم فيه اسم التفضيل في غير قالبه المعهود؛ لأنَّ المقصودين به ارتكبوا أكبر جرمٍ من الجرائم المذكورة، وأصرّوا عليه.

ومهما يكن فإن ارتباط الاستفهام باسم التفضيل يدل على تميُّز المُفضَّل على من يشاركه في الوصف، لا سيما مع خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى النفي؛ لذلك كثر استعمال هذا الأسلوب في وصف افتراء الكذب على الله (اختلاق الأشياء ونسبتها إلى الله) والتكذيب بآياته (الادعاء بأنها ليست من عند الله) والإعراض عنها (عدم الانصياع لها) .

المطلب الثاني: عواقب الظلم:

نالت هذه الفكرة عناية كبيرة، وتعددت صيغها كالآتي:

أ. الصيغة الأولى: تتضمن عرضَ المظلمة وإردافَها بالعقوبة بفاء العطف؛ للترتيب والتعقيب والسببية؛ فلا تأجيل للعقاب أو فرصة للتوبة، وهذا التعبير مختص بالذنوب الكبرى أو بالأقوام الذين تمّ إنذارهم من قبلُ كبني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء: 153) ، وجاءت بهذه الصيغة آيتان متشابهتان:

– ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: 59) .

– ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: 162) .

والملاحظ فيهما نقطتان: الأولى تخصيص العقاب بالفئة الظالمة، والثانية توكيد ارتباط السبب بالنتيجة، وقد عُبِّر عن هاتين النقطتين بطريقة نحوية مختلفة في كل من الآيتين؛ للفت انتباه المتلقي إليهما.

فالآية الأولى فعبّرت عن النقطتين معًا بتكرار لفظ الفئة الظالمة في كل من السبب والنتيجة: (بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا... ← فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...) ، فلم يقل: (بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا... ← فَأَنزَلْنَا عَلَيهم...) بذكر الضمير العائد عليهم بدلًا من إعادة لفظهم؛ لتقرير الوصف بالظلم وبيان سبب العقوبة (المحلي والسيوطي، 2008، ص470) .

والآية الثانية فعبرت عن النقطة الأولى بتقييد الاسم الموصول (الَّذِينَ) بشبه الجملة (مِنْهُمْ) التي لم ترد في الآية الأولى لأن (الذين ظلموا) كررت بنصّها في تتمة الآية للدلالة على الفئة المعاقَبة، في حين كانت شبه الجملة (منهم) ضروية في الآية الثانية لأن (الذين ظلموا) لم يُذكروا في تتمة الآية، وعبّرت عن النقطة الثانية بتكرار الفعل المشتق من الظلم في تتمة الآية: (يَظْلِمُونَ) مقابلًا لـ (يفسقون) في الأولى؛ لأن الفسق نوع الظلم.

ب. الصيغة الثانية: تتضمن الدعوة إلى تأمل حال الظالمين المعاقَبين بأفعال مشتقة من النظر والرؤية المراد بهما الاعتبار والاتعاظ، وقد تكون هذه الأفعال في صيغة الأمر لتأمُّل ما وقعَ وانتهى، أو بأسلوب التمني فيما هو آتٍ يوم القيامة، أو بالمضارع المراد به استحضار الصورة في ذهن المتلقي.

فعلى الأول أربع آيات هي:

– ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: 103) .

– ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: 14) .

– ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: 39 والقصص: 40) .

جاء فعل الأمر مسبوقًا بما يدل على الظلم (الجحود بالآيات والظلم بها، وهما بمعنى الإنكار) أو متبوعًا به، ومعلَّقًا عن العمل في الجار والمجرور إلى العمل في الجملة بأداة الاستفهام (كيف) التي تتيح التعمّق في تأمل حال الظالمين بما تحمله من تحفيز للمتلقي بأسلوب الاستفهام.

وعلى الثاني آيتان هما:

– ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: 165) .

– ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (سبأ: 31) .

والملاحظ فيهما الانتقال من النظر إلى الرؤية؛ لأن النظر فعل إرادي والرؤية لا إرادية، والنظر مقدمة حسية للرؤية العقلية (العسكري، 1997، ص75 – 76) ، فجعل النظر لتأمل ما كان، والرؤية لتأمل ما سيكون، ونوّع فيهما بين الغيبة والخطاب لإفادة الوعيد بضمير الغائب، وإفادة الوعظ بضمير المخاطب.

وعلى الثالث ثلاث آيات هي:

– ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (الشورى: 22) .

– ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: 44) .

– ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (الشورى: 45) .

حملت لغة الجسد دلالات الخنوع والخوف بوساطة هيئة الخشوع وتلصص النظر، مع الانتباه إلى الفرق بين رؤية البرهان في صيغة المخاطب المطمئن ونظر الخلسة في صيغة الغائب الخائف.

ت. الصيغة الثالثة: الربط بين السبب والنتيجة بـ (لمّا) التوقيتية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (يونس: 13) ، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (الكهف: 59) ، إذ تقدّمت النتيجة على السبب عكس قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا

﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: 165) ، وفيها ينصب العذاب على (القرون) و (القرى) لتحقيق دلالتين لامتداد الهلاك: زمانية ومكانية.

ث. الصيغة الرابعة: الربط بين السبب والنتيجة بالباء السببية، وقد يأتي السبب بصيغة المصدر قبل النتيجة كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ (النساء: 160) ، وقد تتقدم النتيجة على السبب بصيغة الماضي كقوله تعالى: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: 52) ، وقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ (النمل: 85) للفت الانتباه إلى العاقبة.

ج. الصيغة الخامسة: التعبير عن العقاب بفعل الأمر كالآتي:

- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ (يونس: 52) .
- ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: 37) .
- ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (الزمر: 24) .
- ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سبأ: 42) .
- ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (الصافات: 22) .

فالأمر يوحي بإذلال الظالمين وإهانتهم خلافًا لما كانوا عليه في الدنيا، ويوحي تكرار الفعل (ذُوقُوا) بغضب الله عليهم وانتقامه منهم بمثل ما أذاقوه للمظلومين.

ح. الصيغة السادسة: التعبير عن العقوبة بالفعل الماضي مؤكّدًا لما هو خاص بيوم القيامة، ومجردًا من المؤكّدات لما وقع وانتهى؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه: 111) ؛ لأن الآية تتحدث عن يوم القيامة بدليل قوله تعالى في آية سابقة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (طه: 109) ، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ (الأنعام: 45) فالمقصود به ما وقع وانتهى بدليل قوله تعالى في آية سابقة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (الأنعام: 42) .

خ. الصيغة السابعة: ربط العقاب بالجملة الحالية الدالة على الظلم؛ لبيان حال الظالمين التي ينزل فيها عقابهم كالآيات الآتية:

- ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ (هود: 102) .
- ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل: 113) .
- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ (الحج: 45) .

جاءت الجمل الحالية الثلاث اسمية للتعبير عن استقرار الظلم فيهم أثناء المعاقبة، إذ نزل العقاب وهم في هذه الهيئة متلبّسون بالجرم.

د. الصيغة الثامنة: التعبير بالجملة الاسمية عن الوعيد بالعقاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود: 37 والمؤمنون: 27) للدلالة على توكيد الحكم، كما جاءت الجملة الاسمية في ختام قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴾ (الحشر: 17) لتوكيد مضمون ما سبقهما.

المطلب الثالث: التحذير والتخويف من الظلم:

تعددت التراكيب المعبرة عن التحذير من الظلم، فكان بعضها لا ينظمه نسق مشترك، ومنها ما تنظمه أنساق معينة كالآتي:

أ. التخويف من العذاب:

ثمة فرق بين (عواقب الظلم) الذي جاء عنوانًا للمطلب الثاني، وبين (التخويف من العذاب) فالأول وقع فيه العقاب وانتهى، والثاني يحذّر من وقوع العقاب.

وجاء هذا النوع من الوعيد بصيغتين رئيستين: الأولى الجملة الاسمية الكبرى المؤكّدة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: 21 وإبراهيم: 22) .

أما قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الإنسان: 31) ، فقد عُدِلَ به في صيغة الوعيد عن الجملة الاسمية إلى الفعلية لمناسبة الوعد في صدر الآية بالجملة الفعلية، ولذلك فالأرجح من بين أعاريب (وَالظَّالِمِينَ) أن تكون مفعولًا به لفعل محذوف يفسره المذكور، والعطف للجمل (السمين الحلبي، د. ت، 10/ 627) .

أما الصيغة الثانية فهي الجملة الشرطية كالآيات الآتية:

- ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (النحل: 85) .
- ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الكهف: 87) .
- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر: 47) .
- ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: 19) .

فقد دلّ أسلوب الشرط على الارتباط الحتمي بين الفعل وجوابه ارتباطًا يوحي إلى الظالم بأنه لا مفرَّ من العقاب، واكتنفت قرينة الشرط دلالات مستمدة من تنوع الأدوات بين (إذا) الظرفية للربط الزمني و (من) للعاقل لربط العقاب بالمجرم و (لو) الدالة على امتناع قدرة الظالم على افتداء نفسه من العذاب، مع عدم تحديد نوع الظلم في الآيات لإرادة الإطلاق.

واجتمعت الصيغتان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ (الكهف: 29) ؛ فالتخويف بوساطة الجملة الاسمية الكبرى في صدر الآية للتنبيه إلى المسند إليه، وهو الله، ثم جاء التخويف بالجملة الشرطية في تتمتها.

ب. تجريد الظالمين من أعوانهم:

نلمس نسقًا معيَّنًا في التعبير عن هذه الفكرة في الآيات الآتية:

- ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (البقرة: 270) (9) .
- ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (الحج: 71) .
- ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: 18) .

- ﴿بَل اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (الروم: 29) .

- ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى: 8) .

جاءت هذه الفكرة في تركيب موحّد يتجلى في الجملة الاسمية المؤكدة بـ (من) الزائدة في المبتدأ المؤخر لتوكيد انتفائه.

ت. التخويف من أهوال يوم القيامة عليهم:

تأتي بعض الصور لتصور ندم الظالمين يوم القيامة، فيكون التركيز منصبًّا على تصوير ذلك اليوم بإضافته إلى جملة أو مفرد يوحي بشدة الهول كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ (الفرقان: 27) ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (غافر: 52) ؛ فالمضاف إليه في هذه الجمل جاء لتخصيص ذلك اليوم بالعذاب والندم الذي تفضحه لغة الجسد بعضّ اليدين، حتى أصبحت هذه السمات لصيقةً بالمضاف؛ لأن المتضايفين كالكلمة الواحدة.

وقد يأتي هذا النوع من التهويل بالتخصيص بالوصف إلى جانب التخصيص بالإضافة كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (الزخرف: 65) ، حيث أضاف العذاب إلى اليوم ووصف اليوم بأنه أليم، فأتبع الصفة للمضاف إليه، مع أن المراد أن العذاب هو الأليم؛ ليؤكد أن ذلك اليوم كله عذاب في عذاب لهم، حتى أصبحا وجهين لعملة واحدة.

ث. تنبيههم على مراقبة الله لهم:

من أَخْوَف أشكال تهديد الظالم إعلامُه بوساطة الخبر الابتدائي أن ربّه يميزه ويراقبه دائمًا، فلا يمكن له أن يتنصّل من العذاب، وتكررت هذه الصورة في خمس آيات؛ أربعٌ منها جاء فيها الخبر صيغة مبالغة، وواحدة جاء فيها اسم تفضيل، وهي:

- ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 95 والبقرة: 246 والتوبة: 47 والجمعة: 7) .

- ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 58) .

فعلى الرغم من خلوّ هذه الآيات من المؤكّدات المعروفة، إلا أن الجملة الاسمية وصيغتي المبالغة والتفضيل أسهمت في إرسال رسالة إلى الظالم بأن الله محيط بكل تحركاته.

ج. النهي عن الانخراط مع الظالمين:

بعد ما عرفناه عن عذاب الظالمين أصبح كافيًا أن يُحذَّر الإنسان من مجرد مخالطتهم كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 68) ، وكذلك يُحذَّر الإنسان أن يكون واحدًا منهم، وهذا ما يُعبَّر عنه بالمصدر المؤول المعطوف على مصدر منتزع مسبوق بالنهي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 35 والأعراف: 19) ، والتقدير: (لا يكنْ منكما قربٌ فظلمٌ) ؛ فالمصدر الأول هو المنتزع، والثاني هو المؤول. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: 52) ؛ وفائدة هذا التركيب التنبيه إلى الربط السببي بين هذه الأفعال والظلم.

خاتمة:

في مَقْفل رحلتنا نسأل الله أن نكون وُفِّقنا في محاولة الكشف عن الأسرار الدلالية لموضوع الظلم المكنونة في أصداف النحو والصرف، ولا شك أننا لمّا نصلْ إلى قرار البحر، فهو مازال ينتظر من يكملون الرحلة، **وحسبنا ما وصلنا إليه من نتائج:**

1. إذا تكررت آية ما، فإما أن تُكرر بنصّها للدلالة على التوكيد، وإما أن تُكرَّر بتعديل ما للفت انتباهنا إلى هذا التعديل. والتعديل إما أن يتضمن معنًى جديدًا، أو يكون هدفه تركيز الذهن على نقطة ما. وهذا من الأساليب التعليمية في القرآن.

2. يعتمد القرآن على المعاني النحوية والصرفية لإيضاح الأفكار الجزئية؛ كالتقديم للحصر، والحذف للإطلاق، واستخدام الأدوات النحوية التي تؤدي ما لا يؤدَّى بغيرها؛ كالدلالة على انتفاء إرادة الظلم باستخدام (كان) المنفية مع لام الجحود.

3. إذا نُفيت صيغة مبالغة، فنفيُها لا يعني احتمال وقوع القليل منها، بل تنسحب حينئذ دلالة المبالغة من الصيغة الصرفية إلى حرف النفي، فيصبح المعنى على المبالغة في النفي، لا على نفي المبالغة.

4. خصّ القرآن نفي ظلم الله لمخلوقاته بصيغة (فعّال)، وخصّ التعبير عن ظلم الإنسان بصيغة (فعول)؛ لأن الثانية تُستعمل فيما فُطِر عليه الإنسان.

5. لا يُستخدم اسم التفضيل في تصوير الظلم إلا عندما يمس شعائر الله وما يلحقها من الكبائر كافتراء الكذب على الله ومنع الصلاة في المساجد وكتمان شهادة الحق، للدلالة على شدة شناعتها.

6. أفرد القرآن لتصوير عواقب الظلم العدد الأكبر من التراكيب ليحقق التناسب بين الشكل والمضمون، فاستخدم مثلًا الفاء التعقيبية في عواقب المظالم الكبرى فقط دون غيرها.

7. ثمة علاقة وطيدة بين الشكل (النحو والصرف) والمعنى في القرآن، يغدو معها الثوب اللغوي خيرَ معبِّر عن الجوهر الدلالي.

الهوامش:

1. كما سنرى في الفقرة (ج) .

2. هذه الآية الوحيدة التي تقدّم فيها معمول خبر كان عليها، خلافًا لبقية الآيات المسبوق مضارعها بفعل الكون، حيث جاء المعمول متوسطًا بين (كان) وخبرها في بقية الآيات، وسبب تميّز هذه الآية خروجها عن القالب العام الذي تتوسطه (لكن) ، فقدّم المعمول هنا خطوتين للمبالغة في الحصر، ولو قُدِّم في الآيات ذوات الكفّتين وأصبحت: (وما ظلمناهم ولكن أنفسَهم كانوا يظلمون) لوقع لبس بأن الظلم المنفي قد وقع على (أنفسَهم) ، وكذلك لو أصبحت: (وما ظلمونا ولكن أنفسَهم كانوا يظلمون) لوقع لبس بأن (أنفسَهم) معطوفة على (نا) كقولك، (ما ضربوني ولكنْ زيدًا) الذي أشار إليه ابن حيان الأندلسي (1420هـ، 1/ 349) بقوله: "كَانَ ذِكْرُ الْعَامِلِ فِي الْمَفْعُولِ لَيْسَ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ قِيلَ: "وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ"، لَكَانَ كَلَامًا عَرَبِيًّا".

3. انظر الآيات السابقة واللاحقة من سورة غافر.

4. (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) (النساء: 10) .

5. (إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء

الظَّالِمِينَ) (المائدة: 29) .

6. (قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (يوسف: 75) .

7. (وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا) (النساء: 30) .

8. (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الشورى: 42) .

9. ومثله: (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) (آل عمران: 192 والمائدة: 72) .

المصادر والمراجع العربية:

- القرآن الكريم.
- أحمد، عبد الرزاق. (1436ه) . ضمير الفصل ووظائفه في القرآن الكريم، ط1، الرياض: جامعة الملك سعود.
- الأمين، محمد. (2001) . تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، (مراجعة هاشم مهدي) ، ط1، بيروت: دار طوق النجاة.
- الأندلسي، أبو حيان. (1420ه) . البحر المحيط، (تحقيق صدقي جميل) ، ط1، بيروت: دار الفكر.
- الأنصاري، ابن هشام. (1985) . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (تحقيق مازن المبارك ومحمد حمد الله) ، ط6، دمشق: دار الفكر.
- بطة، عبد العزيز. (2018) . الفروق اللغوية في النصف الأول من القرآن الكريم، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة محمد بوضياف، الجزائر.
- الجرجاني، عبد القاهر. (2009) . دَرْجُ الدُّرر في تَفسير الآي والسُّوَر، (تحقيق طلعت الفرحان ومحمد أمرير) ، ط1، الأردن: دار الفكر.
- الزمخشري، محمود بن عمر. (1407هـ) . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الزوزني، الحسين بن أحمد. (2004) . شرح المعلقات السبع، (تقديم عبد الرحمن المصطاوي) ، ط2، بيروت: دار المعرفة.
- الزيادي، عمار. (2006) . ضمير الشأن في القرآن الكريم، مجلة جامعة كربلاء، 4 (3) : 237 – 275.
- ابن السراج، محمد بن السري. (د. ت.) . الأصول في النحو، (تحقيق عبد الحسين الفتلي) ، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- السمين الحلبي، شهاب الدين. (د. ت.) . الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، (تحقيق أحمد الخراط) ، ط1، دمشق: دار القلم.
- السيد موسى، محمد. (د. ت.) . الإعجاز البلاغي في استخدام الفعل المبني للمجهول، ط1، مصر: مطبوعات جامعة المنصورة.
- السيوطي، جلال الدين. (د. ت.) . همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، (تحقيق عبد الحميد هنداوي) ، ط1، مصر: المكتبة التوفيقية.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984) . التحرير والتنوير، ط1، تونس: الدار التونسية للنشر.
- العاكوب، عيسى. (2008) المفصل في علوم البلاغة العربية، ط1، سوريا: جامعة حلب.
- العسكري، أبو هلال. (1997) . الفروق اللغوية، (تحقيق محمد سليم) ، ط1، القاهرة: دار العلم والثقافة.
- المحلي، جلال الدين، والسيوطي، جلال الدين. (2008) . المفصل في تفسير القرآن الكريم، (تحقيق فخر الدين قباوة) ، ط1، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (د. ت.) لسان العرب، (تحقيق عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي) ، ط1، القاهرة: دار المعارف.

المصادر والمراجع العربية مترجمة:

- *The Holy Quran.*
- *Ahmad Abdul- Razzaq. (1436 AH) . The pronoun and its functions in the Holy Quran, 1st edition, Riyadh: King Saud University.*
- *Al - Amin, Muhammad. (2001) . Interpretation of Gardens of Soul and Basil in the Science of the Qur'an Barrows , (Revision of Hashem Mahdi) , 1st edition, Beirut: Dar Touq Al- Najat.*
- *Al- Andalusi, Abu Hayyan. (1420 AH) . al- Baḥr al- Muḥīt, (A Beautiful Sedky Investigation) , 1st edition, Beirut: Dar Al- Fikr.*
- *Al- Ansari, Ibn Hisham. (1985) . Mughni al- Labib on the books of Arabism, (investigated by Mazen Al Mubarak and Muhammad Hamad) , 6th edition, Damascus: Dar Al Fikr.*
- *Batta, Abdulaziz. (2018) . Linguistic Differences in the First Half of the Holy Qur'an, (unpublished Master Thesis) , University of Mohamed Boudiaf, Algeria.*
- *Al- Jurjani, Abdel- Qaher. (2009) . The Insertion of Pearls in the Interpretation of the Verse and Suras of the Holy Quran, (investigated by Talaat Al- Farhan and Muhammad Imreir) , 1st edition, Jordan: Dar Al- Fikr.*
- *Al- Zamakhshari, Mahmoud bin Omar. (1407 AH) . Uncovering the Facts of the Mysteries of the Revelation, 3rd edition, Beirut: Arab Book House.*
- *Al- Zozani, Al- Hussein Bin Ahmed. (2004) . Explanation of the Seven Mu›allaqat, (Presented by Abdel- Rahman Al- Mestawi) , 2nd edition, Beirut: Dar Al- Marefa.*
- *Al- Ziyadi, Ammar. (2006) . The Pronoun in the Holy Qur'an, University of Karbala Journal, 4 (3) : 237- 275.*
- *Ibn al- Sarraj, Muhammad ibn al- Serri. (D. T.) Fundamentals in Grammar, (investigated by Abdel- Hussein Al- Fatli) , 1st edition, Beirut: Al- Resala Foundation.*
- *Al- Sameen Al- Halabi, Shihab Al- Din. (no date) Al- Dur Al- Masoun in the Sciences of the Holy Book, (investigated by Ahmed Al- Kharrat) , 1st edition, Damascus: Dar Al- Qalam.*
- *As- Sayed. Musa, Muhammad. (D. T.) The Rhetorical Miracle of Using the Passive Voice Verb, 1 st edition, Egypt: Mansoura University Publications.*
- *Al- Suyuti, Jalal Al Din. (no date) Hamo Al Hawame›a in Explaining the Collection of Jawame›a, (investigated by Abdel Hamid Hindawi) , 1st edition, Egypt: Al Tawfikiya Library.*
- *Ibn Ashour, Muhammad al- Tahir. (1984) . Liberation and Enlightenment, 1st edition, Tunisia: The Tunisian Publishing House.*
- *Al Akoub, Issa. (2008) Al- Musfal in Arabic Rhetoric Sciences, 1st edition, Syria: University of Aleppo.*
- *Al Askari, Abu Hilal. (1997) . Language Differences, (investigated by Muhammad Salim) , 1st edition, Cairo: House of Knowledge and Culture.*
- *Al- Mahalli, Jalal Al Din, and Al- Suyuti, Jalal Al Din. (2008) . Al Mufassal on the interpretation of the Holy Qur'an, (investigated by Fakhr Al- Din Kabawa) , 1st edition, Beirut: Lebanon Library Publishers.*
- *Ibn Manzur, Muhammad bin Makram. (no date) Lisan Al- Arab, (investigated by Abdullah Al- Kabeer, Muhammad Hassab Allah and Hashem Al- Shazly) , 1st edition, Cairo: Dar Al- Maarif.*